

"اشهدوا" .. من كانت بلافاتسكي الحقيقية؟ 1

دانييل كالدويل

حكيم قديرٌ يستخدمُ الجسدَ القديمَ المعروفَ باسم بلافاتسكي

في مايو 1891، خاضت جوليا كيتلي¹ التجربة التالية:

بعد بضعة أيام من وفاة مدام بلافاتسكي، أيقظتني بلافاتسكي في الليل. نهضتُ من فراشي دون أي شعور بالمفاجأة، بل غمرني ذلك السرور العذب المألوف. ثبتت نظراتها -التي تشبه نظرات الأسد- في عيني. ثم بدأت هيئتها تزداد نحافةً وطولاً، واتخذت طابعاً ذكورياً؛ وتغيرت ملامحها ببطء، حتى وقف أمامي رجلٌ فارع الطول، يبدو عليه القوة والصلابة. تلاشت آخر آثار ملامحها لتندمج في ملامحه، ولم يتبق سوى تلك النظرة الأسدية -ذلك الإشراق المتسامي الذي كان يفيض من عينيها-. رفع الرجل رأسه وقال: "اشهدي!", ثم غادر الغرفة، واضعاً يده على صورة "مدام بلافاتسكي" أثناء مروره بجانبه. عام من كتاب "ذكريات عن ه. ب. بلافاتسكي والعقيدة السرية 1893، ص 127".

¹ Julia Keightley.

نتنن

قبل ذلك بنحو عامين، خاض جيمس برايس² أيضاً لقاءً لافتاً مع بلافاتسكي:

في أحد الأيام [عام 1889]، وبينما كنت غارقاً في التأمل، ظهر وجه "ه. ب. ب."³ فجأة أمامي. عرفتُها من صورتها في كتاب "إيزيس"⁴ رغم أن ملامحها بدت أكبر سنّاً بكثير. ظننت في البداية أن هذه الصورة - التي اعتبرتها رؤية في المستوى النجمي (النوراني) - ليست سوى نزوة من خيالي، فحاولت طردها من ذهني؛ لكن الوجه أبدى علامات نفاد الصبر، وفي تلك اللحظة وجدت نفسي خارج جسدي، واقفاً في "المستوى النوراني" إلى جانب "ه. ب. ب." في لندن. كان الوقت يقترب من الصباح هناك، ومع ذلك كانت لا تزال تجلس إلى مكتبها للكتابة. وبينما كانت تخاطبني بلطف شديد، لم أستطع منع نفسي من التفكير في مدى غرابة أن تكون سيدة مسنة - تبدو ذات جسد مادي ثقيل - "حكيم" أو ذات قدرات روحية سامية. حاولت إبعاد هذه الفكرة غير اللائقة، لكنها قرأت ما يدور في ذهني؛ وكأنها ترد على ذلك، أصبح جسدها المادي شفافاً، كاشفاً عن جسد داخلي بديع بدا وكأنه مُشكّل من ذهبٍ مُذاب.

² James Pryse.

هيلينا بتروفنا بلافاتسكي.³

إيزيس مكشوفة النقاب. المترجم.⁴

وفجأة، ظهر أمامنا "المعلم موريا متخذاً هيئة "مايافي-روبا"⁵ أي جسداً متجسداً بواسطة الإرادة. انحنيت له إجلالاً عميقاً، فقد بدا لي أقرب إلى إله منه إلى إنسان. وعلى نحوٍ ما، أدركت هويته رغم أنها كانت المرة الأولى التي أراه فيها. خاطبني بلطف قائلاً: "سيكون لدي عملٌ لك بعد ستة أشهر". ثم سار نحو الجانب الآخر من الغرفة، ولوّح بيده مودعاً، ثم اختفى. بعد ذلك، ودعتني "ه. ب. ب." قائلة: "باركك الله"، وفجأة وجدت أمواج المحيط الأطلسي تحت قدمي؛ فنزلت إليها وغمرت قدمي في قمم تلك الأمواج. ثم، وبسرعة خاطفة، عبرت القارة حتى لاحت لي أضواء مدينة لوس أنجلوس، لأجد نفسي عائداً إلى جسدي، جالساً على الكرسي حيث تركته.

ذكريات عن ه. ب. ب. بلافاتسكي، مجلة "الثيوصوفي الكندي"⁶
15 مارس 1935، الصفحات 1-5.

كتب جيمس برايس إلى ويليام كيو. جادج حول تجربته في الخروج من الجسد و«رؤيته» لـ "ه. ب. ب." وقد أشار جودج إلى هذه التجارب في رده على برايس بتاريخ 3 سبتمبر من عام 1889:

عزيزي برايس:

⁵ mayavi-rupa.

⁶ The Canadian Theosophist.

لقد وصلتني رسالتك، وأنا أتفهم مشاعرك تماماً؛ فهي تشبه
مشاعري إلى حد كبير.

لا أرى أن موقفك غريب أو استثنائي لدرجة تعجز عقولنا عن إدراكه، كما أنني لا أنظر إلى تجاربك على أنها مجرد ظواهر وسيطية، ولا أعدّ الحلم أو الرؤية التي اختبرتها أمراً يستعصي على الحل. أنت الآن في المراحل الأولى من صراعك مع "الذات الشخصية"، ويمكنك اعتبار نفسك محظوظاً لأن الفرصة متاحة أمامك لتتغلب عليها في هذه المعركة الأولى.

إن رؤيتك -حين نظرت إلى "ه. ب. ب." فلم ترَ امرأةً عجوزاً، بل رأيت إلهاً- هي رؤيةٌ صحيحة. لقد حظيت بامتياز رؤية الحقيقة؛ فذلك الكيان القابع داخل ذلك الجسد العجوز، المعروف باسم "ه. ب. ب. بلافاتسكي"، هو في الواقع "حكيم عظيم"، يعمل في هذا العالم وفقاً لخطة الخاصة. وهكذا، لا نحتاج إلى الذهاب إلى التبت أو أمريكا الجنوبية لنعر على ذلك النوع من الكائنات الذي يتوق الكثيرون لرؤيته. ومع ذلك، فبعد أن أدركت هذه الحقيقة، من الأفضل لك أن تلتزم الصمت وتواصل عملك واضعاً إياها نصب عينيك. فحتى لو ذهبت إليه وأخبرته بأنك تدرك وجوده، فإنه سيكتفي بالابتسام، منتظراً منك أن تبادر بالقيام بما تستطيع فعله ضمن نطاق قدراتك المحدودة؛ إذ لا قيمة للإطراء، كما أن مجرد الادعاءات لا طائل منها، بل هي أسوأ من العدم. إن ما رأيته أمرٌ عظيم، وسيكون أعظم شأنًا إن حافظت على يقينك ولم تسمح للشك بأن يتسلل

إليك؛ فقد لا تُتاح لك فرصة رؤية ذلك مجدداً... " ويليام كوان جودج، "العلم الغيبي العملي"⁷.

شخصيتان في مدام بلافاتسكي

في رسالة مؤرخة بتاريخ 23 فبراير 1887، كتبت بلافاتسكي إلى ويليام جودج:

نعم، هناك "شخصيتان" بداخلي. ولكن ما المشكلة في ذلك؟ فلديك أنت أيضاً اثنتان؛ إلا أن ما بداخلي واع ومسؤول، بينما ما بداخلك ليس كذلك. مجلة ذا ثيوسوفيكال فوروم، عدد يوليو 1932، ص 226.

شخصيتان "بداخلي؟ ماذا تعني هذه العبارة؟

في المسرد الملحق بالطبعة الثانية (1890) من كتاب *مفتاح الثيوصوفيا، تتحدث بلافاتسكي عن «الأناين» (أو الذاتين)⁸ في الإنسان:

تُعَلِّم الفلسفة الباطنية بوجود "أناين" (ذاتين) في الإنسان، الأنا الفانية أو الشخصية، والأنا العليا، أي الذات الإلهية أو غير

⁷ Practical Occultism.

⁸ أثنان أيغو. المترجم.

الشخصية؛ وتُطلق على الأولى اسم "الشخصية"⁹ وعلى الثانية اسم "الفردية"¹⁰. **انظر المدخل الخاص بكلمة الأنا/الذات¹¹.**

وفي تعريف آخر ضمن مسرد للمصطلحات، تكتب "ه. ب. ب." أن "الفردانية" هي أحد "المصطلحات المستخدمة في النيوصوفيا (الحكمة الإلهية) والعلوم الغيبية للإشارة إلى الأنا لدى الإنسان. ونحن نُميّز هنا بين "الأنا البشرية" الفانية ، وبين تلك الخالدة والإلهية.

وفي موضع آخر من المسرد، نجد هذا:

الفردية هي "الإيغو أو الأنا العليا" (ماناس)¹² ضمن الثالوث، حين يُنظر إلى هذا الثالوث كوحدة واحدة. وبعبارة ثانية، الفردية هي "الأنا" الخاصة بنا -تلك التي لا تفنى- والتي تتجسد من جديد، مكتسبةً في كل ميلادٍ جديدٍ بشخصيةٍ جديدة.

لنورد الآن عدداً من التصريحات التي أدلت بها بلافاتسكي والتي تشير فيها -على ما يبدو- إلى "الفردية" الواعية الكامنة بداخلها.

⁹ Personality.

¹⁰ Individuality.

¹¹ Ego.

¹² Manas.

[هل تظن -بما أنك سبرت أغوار غلافي المادي ودماعي،
وبحكم كونك محلاً بارعاً للطبيعة البشرية- أنك قد تمكنت فعلاً
من النفاذ إلى ما وراء القشور الخارجية لذاتي الحقيقية؟ إنك
لواهمّ تماماً إن اعتقدت ذلك... فأنت لا تعرفني؛ فما يكمن في
الداخل ليس ما تتصوره أنت؛ وعليه، فإن الحكم عليّ بأنني
شخصٌ "غير صادق" يُعدّ أكبر خطأ يمكن الوقوع فيه، فضلاً
عن كونه ظلماً صارخاً. إنني (أي "الأنا" الحقيقية الكامنة في
الداخل) أقبع في سجنٍ، ولا أستطيع الكشف عن حقيقتي كما
هي، رغم كل ما يراودني من رغبة في ذلك. فكيف إذن -حين
أتحدث عن نفسي كما هي وكما أشعر بها- أُحمّل مسؤولية
"باب السجن" الخارجي ومظهره، في حين أنني لم أبين هذا
الباب ولم أزخرفه؟]. - من رسالة بلافاتسكي إلى إيه. بي.
سينيت، "رسائل المهاتما، الطبعة الثانية، ص 465-466.

[أنا على قدرٍ كافٍ من المعرفة في العلوم الغيبية لأدرك أننا،
قبل أن نجد "المعلم" في أعماق قلوبنا - وفي مبدئنا السابع -
نحتاج إلى "معلم" خارجي... لقد تلقيتُ نفحةً من "معلمي"
(المعلم الحي) ... إنه مُخلّص، فهو الذي يقودك لتجد "المعلم"
الكامن في ذاتك...]. - من رسائل إنش. بي. بلافاتسكي إلى
فرانز هارتمان، مجلة "الدرب"¹³ المجلد العاشر، ص 367.

[أنا أجُلُّ "المُعَلِّمين"، وأُعبد "مُعَلِّمي" — الصانع الوحيد ...
لذاتي الباطنة؛ تلك الذات التي لولا دعوته لها وإيقاظها من
سباتها، لما بلغت قطُّ مرحلة الوجود الواعي - على الأقل ليس
في هذه الحياة]. - من رسائل هـ. ب. بلافاتسكي إلى إيه. بي.
سينيت، ص 104.

[أشعر عدة مرات في اليوم بأن هناك كياناً آخر غيري -منفصلاً
عني تماماً- حاضراً داخل جسدي. لا أفقد أبداً وعيي بشخصيتي
الخاصة؛ فما أشعر به يشبه حالتي حين ألتزم الصمت، بينما
يتحدث ذلك "الآخر" -الذي يسكن بداخلي- مستخدماً لساني.
على سبيل المثال، أعلم يقيناً أنني لم أزر قط الأماكن التي
تصفها "ذاتي الثانية" هذه، لكن هذا الكيان الآخر -أو "أنا"
الثانية- لا يكذب حين يتحدث عن أماكن وأشياء لا أعرفها؛ فهو
قد رآها بالفعل ويعرفها حق المعرفة. لقد استسلمت للأمر؛
فليقتدي قدرتي كما يشاء، وما عساي أن أفعل على أي حال؟
سيكون من السخف حقاً أن أنكر امتلاكي لتلك المعرفة التي
يبوح بها هذا "الكيان الثاني"؛ إذ قد يظن من حولي أنني أتعمد
إخفاءها عنهم تواضعاً مني. وفي الليل، حين أكون وحدي في
فراشي، تتجلى أمام عيني حياة هذا "الكيان الثاني" بأكملها،
فلا أرى نفسي على الإطلاق، بل أرى شخصاً مختلفاً تماماً؛
مختلفاً في عرقه وفي مشاعره]. - مجلة الدرب، ديسمبر
1894.

[لا تظن أنني فقدت عقلي. كل ما يمكنني قوله هو أن هناك من يلهمني حقاً... بل أكثر من ذلك: هناك من يتغلغل في داخلي. لست أنا من يتحدث أو يكتب، بل هو كيان ما بداخلي -ذاتي الأسمى والأكثر نورانية- هو الذي يفكر ويكتب نيابةً عني. لا تسألني يا صديقي عما أمرُّ به، فلن أستطيع توضيحه لك بشكل جلي؛ فأنا نفسي لا أعرف حقيقة ما يحدث! الشيء الوحيد الذي أعلمه هو أنني الآن، وقد اقتربت من مرحلة الشيخوخة، أصبحت أشبه بمستودعٍ لمعرفةٍ تخصُّ شخصاً آخر].

نننن